الممالك الاسلامية في غرب افريقيا

إمبراطورية سنغاي الإسلامية أنموذجا

(النشأة والتطور)

أ . رشيدة السعيدي

Rachahistoire@live.fr

جامعة يحي فارس المدية

الملخص:

عرفت منطقة غرب افريقيا قيام عدة ممالك وإمبراطوريات اسلامية كان لها دور فاعل في التعريف بتراث المنطقة والمضي بها قدما في درب الرقي الحضاري، خاصة بعد نجاحها في اخراج المنطقة من نير الوثنية والجهل وتوطيد دعائم التواصل بينها وبين مختلف اقطار العالم الاسلامي بما في ذلك بلدان المغرب الكبير، ومن بين اهم تلك الممالك نذكر امبراطورية سنغاي الاسلامية والتي كان لها شأنا عظيما على غرار الممالك السودانية التي سبقتها، استطاعت مد نفوذها والسيطرة على المنطقة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، لتخرج بذلك من دائرة الدول الصغيرة المحدودة في المكان والخاضعة لسيطرة ممالك اخرى الى مصاف الدول الكبرى المنظمة سياسيا والقوية عسكريا.

Abstract

The West African region has known several Islamic kingdoms and empires that have played an active role in defining the heritage of the region and moving it forward in the path of cultural advancement, especially after its success in driving the region out of the yoke of paganism and ignorance and consolidating the bonds between it and the different countries of the Islamic world, . Among the most important of these kingdoms is the Islamic empire of Sengai, which had a great affair similar to the kingdoms of Sudan that preceded it, was able to extend its influence and control of the region during the fifteenth and sixteenth centuries, To the control of other kingdoms to the ranks of the major politically organized and militarily powerful

– المقدمة:

شهد السودان الغربي قيام ممالك وإمبراطوريات لعبت دورا هاما في رسم المعالم الحضارية للمنطقة، فقد بلغت إمبراطورية غانا ومملكة مالي الإسلامية شأنا عظيما وتمكنتا من السيطرة على مناطق شاسعة من مناطق غرب إفريقيا، حيث كان لها دور فاعل في التعريف بتراث المنطقة والمضي بها قدما في درب الرقي الحضاري، خاصة بعد نجاح الممالك الاسلامية في اخراج منطقة السودان الغربي من نير الوثنية والجهل وتوطيد دعائم التواصل بينها وبين مختلف اقطار العالم الاسلامي بما في ذلك بلدان المغرب الكبير.

غير أنّ أيا من هاتين القوتين لم تبلغ ما بلغته إمبراطورية سنغاي من القوة والسيطرة، خاصة وأنها استطاعت مد نفوذها والسيطرة على مناطق شاسعة في السودان الغربي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، لتخرج بذلك من دائرة الدول الصغيرة المحدودة في المكان والخاضعة لسيطرة ممالك اخرى الى مصاف الدول الكبرى المنظمة سياسيا والقوية عسكريا، ونحن في هذا الصدد سنحاول تسليط الضوء على نشأة هذه المملكة وعلى تطورها التاريخي على ضوء المصادر والمراجع العربية والاجنبية.

1– أصل سنغاي والانتماء السكاني فيها:

تعددت الروايات التاريخية حول اصل شعب مملكة سنغاي بين من ارجعه لأصول عربية شرقية ومن جعله بربريا قادم من الشمال الافريقي، لهذا سنحاول اولا وقبل كل شيء الالمام بمختلف الروايات العربية والسودانية والغربية لنخلص في الاخير الى راي مرجح وقريب من الحقيقة.

1–1– اصل شعب مملكة سنغاي عند المؤرخين العرب:

تمتد امبراطورية سنغاي [1]على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من الداهومي عند مدينة داندي الى جنوب فولتا العليا و شمال نيجيريا الحالية،[2] حيث كانت تقطن قبائل السنغاي التي انقسمت الى قسمين، قسم اشتغل بالزراعة فاستقر بالارض وقسم امتهن

صيد الاسماك فراح يتنقل من مكان الى اخر على طول منحى نهر النيجر، وقد كانت العلاقة بينهما يسودها نوع من التوتر بسبب عدوان جماعة الصيادين على الفلاحين استنكارا لعمل هؤلاء في قطاع الفلاحة الذي يعد بالنسبة لهم استسلاما وخضوعا لا يليق بالمغامرين في اعتقادهم، لهذا كانوا في كل مرة يجمعون قواربهم ويغيروا على قرى الفلاحين لينهبوا ويقتلوا ليفروا بعدها قبل ان تجتمع ضدّهم جموع الفلاحين، وفي حوالي سنة 300 م تحالفت قرى الفلاحين لتشكل تكتلا واحدا تحت امرة ملوك منهم وذلك بنية التصدي للصيادين و التغلب عليهم.(3)

وخلال القرن الاول هجري الموافق للقرن السابع ميلادي حلّت بمدينة كوكيا قبائل اختلف حول اصلها ومكان قدومها بين من ينسبها لقبائل عربية جاءت من اليمن ومن يجعلها بربرية قادمة من طرابلس الغرب، لكن المتفق عليه ان هذه القبيلة استحوذت على الحكم بين قبائل السنغاي وتوسعت المملكة بفضلهم لتطال اماكن شاسعة من السودان الغربي بعدما كانت في البداية عبارة عن مدينة صغيرة تدعى كوكو او كاغو او جاو، وقد ورد ذكرها عند العديد من الرحالة والمؤرخين العرب اذ نجد البكري (ت 487هـ/1094م) يذكرها ويتحدث عن إسلام ملكها قائلا: « ومدينة كوكوا تسع مراحل والعرب تسمي اهلها البزركانيين وهي مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين و ملكهم يسمى قندا وزيهم كزي السودان من الملاحف و ثياب الجلود ... وهم يعبدون الدكاكير...، وإذا ولي الملك دفع إليه خاتم، وسيف ومصحف يزعمون ان امير المؤمنين بعث بذلك اليهم وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين ويزعمون انهم سموا كوكوا لان ذلك ما يفهم من نغمة طبلهم».(4)

كما وردت عند المسعودي (ت 346هـ/956م) في كتابه "مروج الذهب"حيث قال: « ولما تفرق ولد نوح في الارض صار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فصارت منهم متيمنين بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة و الزنج

وصار منهم فريق نحو المغرب وهم انواع كثيرة نحو زغاوة والكانم وكوكو وغانه وغير ذلك من انواع السودان والدمادم..»[5] كما ذكرهم ايضا في كتابه "أخبار الزمان" فقال: « ومن ولد سودان الكركر، وبهم سميت المملكة التي هي أعظم السودان وأجلها قدرا، وكل ملك لهم يعطي ملك الكركر حق الطاعة، وتنسب إلى الكركر ممالك كثيرة ».[6]

أما الإدريسي ابوعبدالله محمد بن محمد عبدالله (ت 560 هـ) فذهب الى وصف عاصمة السنغاي كوكو في قوله: « ومدينة كوكو مدينة مشهورة الذكر من بلاد السودان، كبيرة وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال فيمر بها، ومنه شرب اهلها ويذكر كثير من السودان ان مدينة كوكو على ضفة الخليج و ذكر قوم اخرون انها على نهر يمد النيل والذي صح من القول ان هذا النهر يجري حتى يجوز كوكو بايام كثيرة ثم يغوص في الصحراء ... ثم إن ملك كوكو ملك قائم بذاته،خاطب لنفسه، وله حشم كبير، ودخلة كبيرة، وقواد وأجناد، وزي كامل، وحلية حسنة، وهم يركبون الخيل والجمال، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم ».[7]

كما ذكرها ايضا الجغرافي العربي ابن سعيد (1214م-1286م) في كتابه الجغرافية اذ يقول: « مدينة كوكو و هي حاضرة الحبشة و اليها تدخل القوافل من ارض مصر ووارقلان ويدخل قليل من المغرب على مدينة سجلماسة »، كما حدد المسافة بينها و بين بلاد النوبة بستين يوما و هي ستمائة فرسخا[8] وقد قدم لنا ابن سعيد اثناء تعرضه لكوكو معلومات جغرافية قيمة،[9]

وذكرها ابن خلدون في كتاب العبر: « وكانت تجاورهم من جانب الشرق امة اخرى فيما زعم الناقلون تعرف بصادين مضمومتين او سينين مهملتين، ثم بعدها امة اخرى تعرف مالي ثم بعدها امة اخرى تعرف كوكو ويقال كاغو ثم بعدها امة اخرى تعرف بالتكرور»،[10] والملاحظ ان المصّنفين والمؤرخين العرب السابقين لم يتطرقوا لاصل شعب

سنغاي بقدر ما ركّزوا على موقع مدينة كوكو او كاغو وانتشار الاسلام فيها، باستثناء ماجاء عند المسعودي.

1-2- اصل شعب مملكة سنغاي عند المؤرخين السودانيين:

تعددت الروايات حول اصل تلك القبيلة ومكان قدومها فهناك رواية اورها الدالي اعتماداعلى مخطوطة فتح الحنان المنان لمحمد مرحبا الذي قال انهم ينتسبون الى قبيلة سنغاي القاطنة على ضفاف نهر النيجر الاوسط، في الفترة ما بين القرن السابع والقرن التاسع الميلاديين، حين غزت قبيلة ضياء وهي احدى القبائل العربية واسست اسرة حاكمةعرفت باسرة ضياء والتي نزحت اساسا من طرابلس الغرب، ونشأت بينها وبين السكان الاصليين علاقات مصاهرة.(11)

أما المؤرخ السوداني عبد الرحمان السعدي فقد أورد رواية تحدث فيها عن اصل سكان سنغاي هذا نصّها: " أما الملك زا الاول زا الايمن اصل اللفظ جاء من اليمن قيل انه خرج من اليمن هو واخوه سائرين في ارض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر الى بلد كوكيا وهو قديم جدا في ساحل البحر في ارض سغي كان في زمن فرعون حتى قيل حشر منه السحرة في مناظرته مع الكليم عليه السلام وقد بلغاه في بئس الحال حتى كادت صفة البشرية ان تزول عنهما من التقشب والتوسخ والتعري الا خرق الجلود على اجسادهما فنزلا عند اهل ذلك البلد فسالوهما عن مخرجهما فقال الكبير جاء من اليمن وبقوا لا يقولون الا زا اليمن فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم لاجل ثقله من العجمة فسكن معهم ووجدهم مشركين لا يعبدون الا وثنا فيتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت يظهر لهم فوق الماء في البحر والحلقة في انفه في اوقات معلومة فيجتمعون اليه و يعبدونه فيامرهم وينهاهم فيتفرقون عن ذلك ويتمثلون بما امر ويجتنبون ما نهى وهو يحضر ذلك معهم فلما علم انهم على ضلال مبين اضمر في قلبه قتله وعزم عليه فاعانه الله في ذلك

فرماه بالحديد في يوم الحضور وقتله فبايعوه وجعلوه ملكا قيل انه مسلم لاجل هذا الفعل والارتداد طرا في عقبه بعده ".[12]

الملاحظ ان السعدي خلال تناوله لاصل السنغاي اشار الى الطريقة التي وصل بها زا اليمن الى الملك بعد قتله للسمكة التي كان يعبدها اهل سنغاي انذاك لترتفع مكانته عندهم وينصبونه ملكا عليكم وهي قصة فيها الكثير من الخيال، لكن الارجح ان وصول ذلك الشخص للحكم كان بسبب قدومه من بيئة متحضرة واعجاب اهل سنغاي بكل جديد جاء به.

أما عن الاصول العرقية للطبقة الحاكمة فقد عدد السعدي ملوك سنغاي بأربعة عشر ملكا ماتوا جميعا في الجاهلية، وأول من تولى زمام الحكم منهم كان الملك زا اليمن، وبعد انتهائه من ذكر الملوك الاربعة عشر ذكر من لحقهم من الملوك وصولا الى الحاج محمد اسكيا.

1-3- اصل شعب مملكة سنغاي عند المؤرخين الغربيين:

لقيت امبراطورية سنغاي اهتماما كبيرا من قبل المؤرخين الاجانب فأسهبوا في الحديث عن تاريخ تاسيسها ومختلف المراحل التي شهدتها، ومن بين هؤلاء نجد المؤرخ الفرنسي موريس دولافوس الذي تطرق الى الانتماء السكاني لشعب سنغاي وجذوره الاولى في عدة كتب فاورد لنا الروايات التي ذكرت عن اصل هذا الشعب ليخلص في الاخير الى اعتباره مزيجا من الشعب السوداني المتاصل في المنطقة وبين العناصر المهاجرة، [13] فحسب دولافوس ان شعب سنغاي المتواجد بين بنتيا وكيبي انقسم الى قسمين قسم اشتغل بالزراعة وكوّن قرى له في منطقة كوكيا، وقسم امتهن الصيد ونشط على طول ضفاف نهر النيجر وعُرف بإغارته على جماعة الفلاحين من حين لاخر والسطو على ممتلكاتهم، لكن الامر تغير بقدوم جماعات بربرية من قبائل لمطة هاجرت خلال القرن السابع للميلاد من طرابلس واستقرت في مدينة كوكيا(غونغيا) وتمكن قائدها الملقب

بضياء اليمن من التصدي للصيادين او كما يصطلح على تسميتهم بلغة سنغاي "السركو" فاوقف هجوماتهم نهائيا، الامر الذي دفع اهل سنغاي من الفلاحين الى تنصيبه ملكا عليهم متخذين من كوكيا عاصمة للمملكة. (14)

وقد وافقه الراي المؤرخ روبارت كورنوفان حيث ذكر نفس الرواية القائلة بمجئ القبائل البربرية المنتمية الى قبائل لمطة وهوارة في طرابلس وكيفية تخليصهم للفلاحين من هجومات السركو، واستحواذهم شيئا فشيئا على السلطة بمباركة السكان، ثم تحدث عن اسلام ملكهم الخامس عشر ديا آكوسيي خلال القرن التاسع للميلاد وبالضبط عام 1009م.(15)

اما بيرنارد نانتي في قاموسه فقد جاء براي مغاير تماما معتمدا على اسطورة تداولتها الروايات الشفوية حيث ذكر ان اجداد اهل سنغاي القاطنين في مدينة جاو على مقربة من نهر النيجر يعودون الى مؤسس سنغاي القائد " فاران ماكان بوكي (Faran Makan Boké) الملود من اب من الساركوالصيادين الناشطين في نهر النيجر ومن أم تنتمي لجنيات النهر وكان كبيرهم عبارة عن جني في صورة سمكة قوية تدعى ضيا، وقد تمكن احد المسلمين القادمين من اليمن من قتلها ليتخذهاهل سنغاي بعدها ملكا عليهم وسموه ضيا على اسم السمكة.(16)

بعد الاطلاع على مختلف الكتابات التاريخية التي لأشارت ل وجدنا أن الكثير منهم اعتمادا على ما وجدوه من شواهد تاريخية رجحوا الرأي القائل بأن أصل شعب سنغاي هو مزيج من الزنوج باعتبارهم السكان الاصليين في المنطقة وبين القبائل البربرية المنتمية في الاصل الى قبائل لمطة وهوارة القادمة من طرابلس خلال القرن السابع ميلادي والتي لقبت بعائلة "ضياء" او "زا" على اسم قائدها، وأسست مملكة سنغاي متخذة من كوكيا عاصمة لها واستمر حكمها الى غاية عام 1335م .

2- مراحل تكوين امبراطورية السنغاي :

- **المرحلة الاولى: من القرن السابع الى القرن الرابع عشر ميلادي**

امتدت المرحلة الاولى في تاريخ سنغاي من القرن السابع ميلادي الى القرن الحادي عشر ميلادي، أي مع تولي أسرة ضياء الحكم في مدينة كوكيا على نهر النيجر الأدنى بين غاو الحالية وتيلا بيري خلال القرن السابع ميلادي،[17] لتنقل العاصمة بعدها أي خلال القرن الحادي عشر وبالضبط عام 1009 م إلى غاو،[18] حيث إعتمدت في البداية على الزراعة في إقتصادها لتعرف لاحقا حركية كبرى في مجال التجارة، الأمر الذي مكنّها من ربط علاقات اقتصادية وطيدة مع عدة ممالك ودول وبالأخص تيهرت الرستمية في القرن التاسع ميلادي، إلى جانب علاقاتها مع مصر وإفريقية ما بين القرنين العاشر والثالث عشر ميلادي.[19]

ويعود الفضل في دخول الاسلام إلى مملكة سنغاي الى العلاقات التي ربطتها لفترة طويلة مع بلدان شمال افريقيا والى الاحتكاك المباشر مع التجار والدعاة والفقهاء المالكية الذين كانوا يرتادون المنطقة خلال القرن الخامس هجري /القرن التاسع ميلادي.[20] وقد أسلم الملك ديا آكوسي الذي إستقر في غاو حوالي عام 1010 م لكن دون ان يشمل الاسلام عامة السكان بل إقتصر على العائلة الملكية والطبقة الارستقراطية التي يبدو أنها أعجبت كثيرا بسلوك التجار المسلمين الذين تعج بهم عاصمتهم وبهيئتهم وطريقة لبسهم وأحصنتهم أكثر من شيء آخر حسبما ذهب اليه كورنوفان،[21] وكان من نتائج انتشار الاسلام في مملكة سنغاي اختفاء الالهة القبلية والمعتقدات البدائية واتاح ذلك التفرغ لتأسيس الممكلة فيما بعد. [22]

ومع نهاية القرن الثالث عشر ظهرت مالي كقوة على مسرح الاحداث وسعت للسيطرة على مخارج الذهب في منطقة غابة الاكان من جني الى تنبكتو ومن غاو الى تادمكة ذلك لان انتاج الذهب في بوري اخذ يتراجع ابتداءا من منتصف القرن الثالث عشر ميلادي فحرص حكام مالي على السيطرة على تلك المنطقة،[23] كما خضعت

سنغاي لسيطرة مالي خلال فترة حكم منسى علي (1255-1270) باستثناء العاصمة جاو التي لم يتمكن جيش مالي من اخضاعها، وقد اصطحب السلطان المالي منسى علي ولدي ملك سنغاي زاياباسي وهما علي كولن وسلمان نار [24] كرهائن حتى يضمنا ولاءه وانقياده لامرته وهو تقليد كان عبد الرحمان السعدي قد اورده في كتابه تاريخ السودان اذ قال ان من عادة ملوك السودان استخدام اولاد الملوك في طاعتهم ومنهم من يرجع بعد الخدمة الى بلاده ومنهم من يستمر حتى يموت.[25]

ولما كبر الاخوان اخذهما ملك مالي منسى علي لخدمته كدليل على الولاء كما ذكرنا سابقا، والملاحظ ان طول فترة اقامتهما هناك لم يهدا لهما بال خاصة علي كلن الذي عرف بذكائه ونفاذ بصيرته، فاخذ يخطط للفرار من قصر السلطان مستغلا خروجه لطلب المنفعة من حين لاخر في معرفة الطرق المؤدية الى سنغاي، وعمل ايضا على اعداد العدة بجمع السلاح والمؤن اللازمة في رحلة الهرب المقبل عليها. وبعد ان اتم استعداده اسر لاخيه سليمان نار بالامر فرحب بالفكرة، وامتطا الاخوان جواديهما وتوجها نحو بلدهما سنغاي، وبالرغم من محاولات ملك مالي اللحاق بهما الا ان محاولاته باءت بالفشل و نجح علي كلن واخوه في الوصول الى سنغاي واسترجاع ملك ابيهما، فحكم علي كلن حتى وفاته ليخلفه اخوه سلمان نار.[26] الا ان الامر لم يدم طويلا فبتولى ساكورة الحكم في مملكة مالي الاسلامية (1285 – 1300) استطاع اعادة اخضاع سنغاي ودخول عاصمتها جاو، واستمرت الاوضاع على ما هي عليه لتكون سنغاي خلالها بين محكومة ومستقلة تبعا لقوة وضعف حكام مالي، فطوال فترة سيطرة مالي على سنغاي لم تهدأ الاوضاع،فقد كان اهل سنغاي يثورون من حين لاخر ويستقلون عنها كلما شهدت عاصمتها اضطرابات داخلية. [27]

وفي فترة حكم منسى موسى(1307م-1332م) و كان رجلا عظيما وصالحا[28]استطاع احكام سيطرته عليها بدليل انتظامها في دفع الجزية، وقد اعتبر

السعدي ان السلطان منسى موسى اول من ملك سنغاي من ملوك مالي، و قد اعلن اهل سنغاي الطاعة و الولاء له بعد اداء مناسك،وبوفاة منسى موسى عام 1337 ميلادي شهدت مالي حدوث اضطرابات، ما جعل سنغاي تعلن حالة من العصيان على سلاطين مالي و قامت بمهاجمة الحدود الشرقية للمملكة و تمكنت من السيطرة عليها فقام وزير الملك منسى موسى الثاني (1374م – 1387م) بارسال حملة عسكرية لاسقاط غاو لكنها باءت بالفشل[29] لتتخلص سنغاي بذلك نهائيا من السيطرة المالية، وتوالى على حكمها عدة ملوك كمحمد لوكيا و سن محمد فار وصولا الى سليمان دام الذي ازدهرت المملكة في عهده و بوفاته عام 1464 ميلادي يبدا عهدا جديدا في تاريخ سنغاي.[30]

2-1- المرحلة الثانية : مرحلة حكم سني علي (1464 م – 1492م)

تبدا هذه المرحلة مع تولي سني علي بير[31] مقاليد الحكم عام 1464 م مباشرة بعد وفاة والده انتقل الحكم الى عائلة سني علي التي حكمت بين 1335 – 1493 م،[32] و هي فرع من عائلة ضياء الطرابلسية الامازيغية تولت الحكم بعد استقلال سنغاي عن مالي عام 1335 م بفضل علي كلن، فكان اول شيء قام به هو التخلص من اعدائه ومن ثمه عمل على تحسين اوضاع مملكته وتكوينها والصعود بها الى مصاف الامبراطوريات المتقدمة ليتمكن في فترة وجيزة من احداث نقلة نوعية في تاريخ مملكة سنغاي وتحويلها من مجرد دولة صغيرة الى امبراطورية مترامية الاطراف وتضم اراضي واسعة من غرب افريقيا تمتد من المحيط غربا، الى إمارات الهوسا شرقا، ووسط الصحراء شمالا، وبلاد الموسى جنوبا ودام حكمها أكثر من قرن ونصف اذ استمرت حتى عام 1492 ميلادي.[33]

وقد حكم من اسرة سني ثمانية عشر اميرا اعتبر سني علي ابرزهم حيث انتهج بعد توليه الحكم سياسة حازمة في تسيير شؤون البلاد فنظم الحكم واقام القضاء في تنبكتو

واسس عدة اقاليم، [34] كما شعرفت فترة حكمه أي نشوب عدة حروب لتوسيع في اطار سياسة التسع التي تبناها ذلك الملك وكانت حربه مع الطوارق سنة 1468 ميلادي من اهمها خاصة وانه خرج وجيشه منها منتصرا ليتمكن من بسط نفوذه على مدينة تنبكتو[35]، كما ان فترة حكم سني علي عرفت نهضة اقتصادية من خلال عمله على تشجيع الزراعة و بناء السدود وتطوير التجارة التي عدت اساس الاقتصاد السوداني انذاك، فكان يجامل التجار والاعيان حفاظا على الوضع الاقتصادي لبلاده،[36] واستمرت فترة حكمه سني علي سبع وعشرين عاما حتى تاريخ وفاته عام 1492 الموافق ل 15 من محرم 898 هـ بعد ان ارسى دعائم امبراطورية شاسعة وقوية[37]

2-2- المرحلة الثالثة : حكم عائلة الاسقيين (1493م – 1591 م)

أما المرحلة الثالثة والاخيرة فتمثل مرحلة حكم عائلة الاسقيين وعلى رأسهم الأسقيا الحاج محمد الكبير(1493م -1428م) الذي نجح في الاستحواذ على السلطة مستغلا ضعف خليفة الملك علي بير وتأييد العلماء له خاصة انه كان على دراية كاملة بضعف ذلك الملك وعدم قدرته على تسيير شؤون البلاد،[38] وعلى عكس سني علي فقد لقي تولي محمد توري الحكم مباركة من قبل علماء المنطقة حتى انهم اعتبروه منقذا ومخلصا لسنغاي من بطش سني علي وغطرسته، واشادوا بطريقة تسييره للبلاد واصلاحه لامورها فقد كان الاسكيا محمد الكبير حريصا على كسب رضاهم واعادة الاعتبار لهم عاملا بنصوص الشريعة الاسلامية في ذلك، فقد قرب العلماء والفقهاء من مجلسه واشركهم في اتخاذ القرار وعمل بمشورتهم في عديد من المرات وكل ذلك لاقامة العدل و تحقيق الاستقرار والامن في مملكة سنغاي. [39]

وقد تمكن محمد اسكيا خلال فترة حكمه من تطوير النظام الاداري فاعطى دفعة قوية نحو الحكم المركزي بانشاء عدة وزارات مركزية للشؤون المالية وشؤون الجيش والقضاء الذي كان خاضعا للشريعة الاسلامية[40] ووزارة خاصة بالشؤون الداخلية للقبيلة يشرف

عليها شخص يلقب"كوري فارما"[41]، اضافة الى الشؤون الفلاحية والغابات، كما انشا وزارة خاصة بالشعب الابيض(المغاربة و الطوارق الساكنين على الحدود الصحراوية للامبراطورية) وقسم مملكة سنغاي الى اربع ولايات ونصب على راس كل واحدة منها واليا من اقربائه والمخلصين له يقوم الى جانب ولايته بالاشراف على الجيش(كان جيش سنغاي مكونا من فرقة المشاة وفرقة الفرسان)، تقع الولاية الاولى في الجنوب وتمتد من بلاد دندي حتى بلاد الهوسا والثانية في الوسط و تشمل جاو وتمبكتو، والثالثة في الشمال تبدا في جاو وتنتهي في بلاد الطوارق اما الرابعة فهي موجودة في الغرب و تشمل بلاد السودان الغربي ،كما ثبت بعض النظم المتعلقة بالضرائب واستحدث جهازا امنيا قويا في مملكته وادخل مراكب مهمتها الحراسة والمراقبة.[42]

وبعد ان استطاع الملك محمد اسكيا تثبيت حكمه وكسب رضا الناس من حوله توجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج عام 1496م مصطحبا معه سبعمائة فارس وعدد كبير من الفقهاء وخلال فترة غيابه ولى اخاه "عمر كمزاغ" امور الحكم بالنيابة لحين عودة الملك،[43] خرج الاسكيا في موكب ضخم وحمل معه ما يقارب 300 الف دينار ذهبي لسد نفقاته، ليمرّ بالقاهرة اولا و يلتقي فيها بالشيخ الفقيه العالم السيوطي احد اقطاب الازهر الشريف ومن ثمة انتقل الى مكة المكرمة وادى مناسك الحج وابتاع بعدها حكرا هناك جعله وقفا للحجاج السودانيين واولى عناية كبيرة بالدين الاسلامي وعمل على ارساء تعاليمه فعين شخصا للاسلام يقيم في تمبكتو له السلطة العليا في امور الدين وحصل من شريف مكة على لقب خليفة السودان ايام خلافة اخر الخلفاء العباسيين المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب،[44] ليعود بعدها اكثر قوة خاصة انه حصل على الشرعية الدينية التي لطالما بحث عنها وهو الذي اغتصب الحكم عنوة و لم يرثه عن اجداده. وقد ذكرتنا رحلة هذا الحاكم برحلة الحج التي قام بها منسى موسى ملك مالي عام 1325 م والتي فاقت رحلتها اخبار جميع ملوك السودان نظرا لضخامة الموكب الذي

خرج فيه و للاموال التي بذلها اثناء رحلته فنجد البكري يذكر ان قافلته احتوت على مئة جمل محملة بالذهب، حتى ان سعر الذهب الذهب انخفض في المناطق التي حل بهام منسى موسى لكثرة انفاقه له.و بعد عودة الحاج محمد اسكيا من الحجاز عام 1497 م تفرغ لتوسيع مملكته في اطار سياسته الجهادية ضد الوثنيين ،فكان اول شيء قام به هو ارسال حملات قوية على بلاد الموسي الوثنيين بين عامي 1497 م و1498 م وعملا بنصائح الفقهاء و رجال الدين ارسل بداية رسوله الى ملك الموسي يدعوه للاسلام لكنه رفض فما كان من ملك سنغاي سوى اعلان الحرب عليه والحق به هزيمة نكراء.[45] لينتقل بعدها عام 1498 م الى مالي حيث ضم مقاطعة باجانو ومنطقة ايورو التي تحصن فيها ابراهيم داعو، كما تمكن ايضا من ضم بلاد الهوسا ووصل جيشه اليها عام 1513م وتمت له السيطرة على ممالح تغازه[46] فتوسعت امبراطورية سنغاي في عهده لتصل الى بلاد الموسي والهوسا في الجنوب وتلامس الصحراء شمالا و تنتهي عند حدود درجتي 10 ° شمالا.[47]

وبفضل السياسة الرشيدة التي انتهجها الحاج محمد اسقيا صارت سنغاي اكبر امبراطورية في غرب افريقيا سواء من حيث المساحة او من حيث تعداد السكان و التنظيم والحضارة، فقد حكم ثمانين عاما لتعرف البلاد في عهده نهضة حضارية وثقافية من خلال تأسيسه لجامعة سانكوري التي صارت تضاهي في اهميتها الجامع الازهر وجامع القرويين في تونس، وتحولت جني وتمبكتو غاو الى حواضر اسلامية ومراكز لنشر الدين الاسلامي في وقت كثرت فيه زيارات العلماء والفقهاء العرب الى المنطقة امثال محمد بن عبد الكريم المغيل الذي زار المنطقة وبقي مدة في ضيافة الحاج محمد اسقيا واجاب على مجموعة من تساؤلاته حول الحكم وامور الدين. ومع تقدم سنه اصيب بالوهن وفتراجعت سيطرته على الامور ما جعل اولاده يتنافسون على العرش متذمرين من طول فترة حكم الوالد، وتفاقم الامر بوفاة اخيه "عمر كمزاغ" عام 1519 م فمنح ولايته غورما لاخيه

الاصغر يحيى، وكان اسقيا موسى ابن ملك سنغاي يطمح لحكمها فثار غضبا و تامر ضد والده بمساعدة اخوته واعمامه، فقام بداية بطرد المستشار الاول للاسقيا محمد "علي فلن "من القصر عام 1527 م [48] ليدخله في العام الموالي بالقوة ويجبر على التنازل له على العرش و بعد ذلك بدا عهد الاسقيين الجدد الملئ بالصراعات والاقتتال على الحكم.

وكان عهد الاسقيا اسحاق الثاني(1588م– 1591م) اخر فترة في تاريخ مملكة سنغاي الاسلامية بعد ما آلت اليه من ضعف جعلها لقمة سائغة في فم المتربصين بها مثلما حدث مع المغرب الاقصى الذي كان يصبو للسيطرة على مناجم الملح في تغازه، وجرت عدة مراسلات بين ملك سنغاي و السلطان السعدي احمد المنصور انتهت بمواجهة عسكرية عنيفة قامت المغرب على اثرها بارسال حملة عسكرية الى مملكة سنغاي وحققت انتصارا هناك، لتسقط بذلك مملكة سنغاي وينتهي حكم عائلة الاسقيين و تبدا مرحلة جديدة في تاريخ سنغاي الا وهي سنغاي تحت وطاة الحكم المغربي. [49]

الخاتمة :

في الأخير نستطيع القول أنّ امبراطورية سنغاي الاسلامية استطاعت الى حد بعيد فرض سيطرتها على منطقة السودان الغربي طيلة القرنين 15م و16م مسهمة بذلك في نشر الرسالة المحمدية بين شعوبها خاصة في عهد الاسقيا الحاج محمد الكبير، غير أن إنشغال معظم الملوك السنغائيين بالنزاعات العائلية والصراع على السلطة وانغماسهم في حياة البذخ والترف على حساب شؤون الرعية أدى الى ظهور حالة من الضعف والانهيار الذي عصف بأركان الإمبراطورية وأدى إلى تزايد الطامعين فيها خاصة من قبل المغرب الاقصى ، حيث تتالت الحملات العسكرية من المغربية على المنطقة والتي انتهت بسقوطها.

وبالتالي يمكننا القول أن جملة من العوامل الداخلية والخارجة تضافرت لانتهاء سنغاي ككيان اسلامي قائم بذاته سيؤدي اندثارها لاحقا الى نشوء حالة من الفراغ السياسي في

منطقة السودان الغربي مما يسمح بحدوث نزاعات وصراعات كثيرة في إطار سياسة بسط النفوذ والسيطرة و تنامي نشاط المجموعات الوثنية فيها

الهوامش:

(1) نسبة لقبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد ثم اخذت تنتقل الى الشمال مع النيجر، و في القرن السابع الميلادي كانت تمتد مساكنها حول النيجر بحوالي 150 كلم. تمتهن صيد الاسماك و زراعة الدخان و في هذا الوقت بدا انتظام شعبها تحت سلطة واحدة. انظر: عبد القادر زبادية: الحضارة العربية و التاثير الاوروبي في افريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1989، ص 20.

(2) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1998، ص 301 و سينيكي مودي سيسوكو: السنغاي من القرن الثاني عشر ميلادي الى القرن السادس عشر ميلادي، في تاريخ افريقيا العام، المجلد الرابع، اليونيسكو، 1988، ص 199.

(3) احمد شلبي : موسوعة التاريخ (الاسلام و الدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الان) ، الجزء6، ط 6 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1998 ، القاهرة ، ص121.

(4) ابو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، تحقيق سالان، الجزائر، 1857،ص183.

(5) ابو الحسن المسعودي: مروج الذهب و معادن الجوهر، المجلد 3 (8 مجلدات) ، المكتبة الوطنية، مؤسسة اسياتيك، باريس، دت، ص2.

(6) ابو الحسن المسعودي: اخبار الزمان و من اباده الحدثان وعجائب البلدان والعامر بالماء والعمران ، ط4، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت ، 1980، ص ص 88-89.

(7) الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، المجلد الاول ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002 ، ص 28. ونقل عنه ابو العباس القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشاء، 15 جزء، الجزء 5 ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، 1915 ، ص 285.

(8) الفرسخ استعمله السودانيون في تقديرهم للابعاد وقدروه بمسيرة ساعة بالخيل السريع ،ويستعمل لقياس المسافات البعيدة ويقدر ب3 اميال أي 1920×3= 5760 مترا بالتقريب / الميل = 1920 متر انظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي:اسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق: عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،1974، ص53.

(9) ابوعبيد الزهري: كتاب الجغرافية ، تحقيق: محمد حاج صادق، المركز الاسلامي للطباعة ، مصر، دت، ص137.

(10) عبد الرحمان ابن خلدون : ديوان المبتدا و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار ، الجزء6 ، دار الفكر للطباعة و النشر، لبنان ، 2000 ، ص 266.

(11) الهادي المبروك الدالي : التاريخ السياسي و الاقتصادي لافريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن 15 م الى بداية القرن 18 م، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1999، ص 91 .

(12) عبد الرحمان السعدي ، تاريخ السودان، تحقيق : هوداس و بنوة، مطبعة امريكا و الشرق، باريس ، 1981، ص 4.

(13) Maurice Delafousse : Haut Sénégal-Niger, Tom1, Emile Larose Libraire- Editeur, paris, 1912, p240.

(14) Maurice Delafousse ,

(15) Cornevin (Robert et Mariene): Histoirede l'Afrique (des origines à la deuxiéme guerre mondiale), Paris, 1964, p134.

(3) Bernard Nantet : Dictionnaire d'Histoire et Civilisations africaines, Larousse-Bordas, Paris, 1999,p214.

(17) عزالدين عمر موسى : دراسات اسلامية غرب افريقية ، ط2 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 2003 ، ص76 .

(18) عبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التاثير الاوروبي في افريقيا جنوب الصحراء، ص 20.

(19) عزالدين عمر موسى ، المرجع السابق، ص77.

(20) احمد الشكري : الاسلام و المجتمع السوداني : امبراطورية مالي(1230 م- 1430 م) ،المجمع الثقافي ، ابوظبي ، 1999، ص103.

(21) Cornevin (Robert et Mariene): Histoirede l'Afrique, p162.

(22) بازيل دافيدسون: افريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة: نبيل بدر و سعد زغلول، الدار القومية، مصر، دت، ص 48 .

(23) عز الدين عمر موسى ، المرجع السابق ، ص 77.

(24) علي كلن و سلمان نار سلمان نار هما ابنا زاياسبي انجبهما من امراتين شقيقتين،ام علي كلن تدعى " اما "و هي اكبر اخواتها وقد استمر زواجهما لفترة من الزمن دون انت تنجب له ولدا فطلبت منه ان يتزوج اختها كما جرت العادة عندهم علها تلد له غلاما يرث عرشه وبالفعل تم الزواج وحبلت الزوجة الثانية بولدين ذكرين، وعند الولادة طرح المولودان على التراب في غرفة مظلمة كما جرت العادة لدى اهل سنغاي(تسري هذه العادة على من يولد في الليل فلا يغسل الى في اليوم الموالي) وشاءت الاقدار ان يغسل على كلن اولا ليكون الاكبر، ويغسل بعده سليمان نار فيكون الاصغر. أنظر: السعدي ، المرجع السابق، ص 7.

(25) السعدي ، المرجع السابق ، ص 5 .

(26) الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص97.

(27) عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 78.

(28) عبد الرحمان ابن خلدون : ديوان المبتدا و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشان الاكبر، ج6 ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكرللطباعة والنشر، لبنان، 2000، ص 267 .

(29)عبد الرحمان ابن خلدون المرجع السابق، ص267.

(30) السعدي، المرجع السابق، ص 72.

(31) سني علي ابن سليمان دام ينتسب الى اسرة ضياء التي نزحت من طرابلس الغرب و استقرت في تلك الاماكن و هو اب لابن يدعى ابو بكر داعوا و عدد من البنات. انظر: السعدي،المرجع السابق، ص 72 وعبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493 م – 1591 م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص 26 .

(32) تدعى هذه العائلة بلسان سنغاي ايون اما لفظة سني فقد اطلقها عدد من المؤرخين الذين كانوا قد كتبوا بالعربية تاريخ البلاد ثم شاع استعمالها لدى غيرهم و لا ندري كيف جاءت هذه التسمية فهناك فرق بين لفظة ايون و سني . انظر: السعدي ،المرجع السابق ،ص 64 و كعت ، المرجع السابق،ص 44 وعبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التاثير الاوروبي في افريقيا جنوب الصحراء، المرجع السابق ،ص21.

(33) احمد شلبي ، المرجع السابق ، 264.

(34) سينيكي مودي سيسوكو، المرجع السابق، ص20.

(35) تاسست بلاد الموسي في القرن 11م وهي عبارة عن مناطق يحيط بها نهر الفولتا الاسود و الابيض، وتضم مملكتين هما مملكة اوغادوغو و مملكة ياتينغا انظر:دنيس بلوم ،الحضارات الافريقية، ترجمة: علي شاهين، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1974، ص63.

(36) عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493 م – 1591 م ،ص 106.

(37) السعدي، المرجع السابق، ص71.

(38) اورد المغيلي ان محمد توري من اصل سراكولي قدم اجداده من الجنوب الموريطاني اثناء حدوث اضطرابات في مملكة غانة مع نهاية القرن 11 م و حلت عائلته حول نهر النيجر الاوسط و اختلفت مع قبيلة سنغاي.انظر:محمد بن عبد الكريم المغيلي:اسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي،تقديم وتحقيق:عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص 10.

(39)عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493 م – 1591 م ، ص 31.

(40) جوان جوزيف : الاسلام في ممالك و امبراطوريات افريقيا السوداء ، ترجمة : مختار السويفي ، ط1، دار الكتب الاسلامية، القاهرة 1984 ، ص85.

(41) عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493 م – 1591 م ،المرجع السابق ،ص37.

(42) محمد فاضل علي باري وسعيد ابراهيم كريرية : المسلمون في غرب افريقيا، دار الكتب العلمية ، لبنان، 2007 ، ص217.

(43) سينيكي مودي سيسوكو، المرجع السابق ، ص206.

(44) نور الدين شعباني : دور ملوك السودان الغربي و الاوسط في نشر الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء بين القرنين الخامس و التاسع هجري/ الحادي عشر والخامس عشر ميلادي، دورية كان التاريخية ، العدد 14، ديسمبر 2011،ص51.

(45) السعدي ، المرجع السابق، ص 74.

(46) في . جي . دي : تاريخ غرب افريقيا ، ترجمة : السيد يوسف نصر ، ط 1 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982،ص65 .

(47) دولافوس اعالي السنغال وزبادية الاسقيين 38

(48) السعدي ، المرجع السابق ،ص 80.

(49) الناصري ، المرجع السابق ، ص39.